القابض ـ الباسط

في الصفحات التالية يتجلى علينا الله سبحانه باسميه القابض والباسط وهما من الأسماء الحسنى ، والبحث فسيح رحيب إن شاء الله .

الحقيقة أن إخوةً كثيرين جداً ممن تابوا إلى الله توبةً نصوحاً وممن اصطلحوا مع الله ، دائماً يسألون هذا السؤال ، فيقولون أحياناً نشعر بالسعادة والغبطة والسرور والانشراح بحيث نرى أنفسنا في الجنة ، وتأتي علينا ساعة أخرى فنشعر بالانقباض والضيق بحيث نتمنى الموت ، فما تفسير هاتين الحالتين ؟ لذلك سأحاول الإجابة إن شاء الله عن هذا السؤال المتكرر الذي يعاني منه كل مؤمن من خلال هذين الاسمين .

فمن أسماء الله تعالى أنه القابض والباسط ، وأول ملاحظة أذكرها أنه لا يجوز أن تقول : إن الله قابض فقط ، لأنك إذا قلت : قابض فمعنى ذلك أنك تصفه بالمنع والبخل ، ولكن إذا قلت : إنه قابض باسط ، فمعنى ذلك أنك وصفته بالقدرة والحكمة ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

وهكذا فإذا أردت أن تعلل فتقول : يقبض ليبسط ، ويضر لينفع ، ويمنع ليعطي ، ويذل ليعز ، فأنت إذاً سائر في طريق الصواب .

ثم لابد من أن نعطي الكلمة معناها اللغوي : فمعنى القبض لغةً هو الأخذ ؛ والبسط هو التوسيع والنشر ، هذان الأمران يعمَّان جميع الأشياء ، فكل أمرٍ ضيقه الله عز وجل فقد قبضه ، وكل أمر وسعه فقد بسطه ، ثم علينا أن نتحول إلى بعض أبواب القبض والبسط ، فالمعنى الأول : الرزق ، قال الله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[العنكبوت : ٦٢]

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الروم : ٣٧] .

فلا تقل : فلان ذكي ، وثان عنده خبرات في التجارة رائعة جداً ، وثالث خطط ، ورابع مقتدر ، وآخر صاحٍ ، فالله عز وجل يقبض ويبسط ويرزق ويسلب ويعطي ويمنع ، فإذا أراد أن يرزقك ألهمك الوسائل والأساليب والموضوعات والمواقف والتحركات المناسبة للربح ، وإذا أراد أن يقبض وكنت غنياً فقد سرت في طريق الإفلاس وأنت لا تدري ، وإذا أراد ألا يرزقك لحكمة أرادها سد في وجهك كل الأبواب ، إذ قد تكون ذكياً جداً إلا أنك في هذا العمل تسلّم المحل ، وفي ذاك العمل تفك الشراكة .

فإذا قال الله عز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أو قال الله عزَّ وجل : ﴿ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فاعلم علم اليقين أن الله هو الرزاق ، وهو الذي يمنع الرزق ويسلبه . والعوام يقولون :

إذا أعطى أدهش وإذا حاسب فتش ، لكن أيها القارىء الكريم إياك أن تظن أن البسط عند الله عز وجل فيه معنى الإسراف ، وأن القبض فيه معنى البخل ، فهذان المعنيان يجب ألا يرِدَا على ذهنك إطلاقاً ، فإذا تحدثت عن أن الله يقبض ويبسط ، فليس إذا قبض قبض بخلاً ، ولا إذا بسط بسط إسرافاً ، بل يقبض عن حكمة وقدرة وعلم وتقدير ، ويبسط عن إكرام وتوسعة وامتحان ، فبسطه إكرام أو امتحان وقبضه معالجة أو وقاية ، والدليل قول الله تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

إذاً المعنى الأول متعلق بالرزق ، وأما المعنى الثاني فمتعلق بالسحاب ، قال الله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم : ٤٨] .

هذا السحاب ينتشر في السماء كما يشاء الله عز وجل ، وقد يقبضه عن قوم ويبسطه لقوم ، مطرة واحدة في منطقة ما ثمانون ملم في ليلة واحدة ، ومنطقة أخرى ملم واحد ، معنى هذا قبض عن هؤلاء وبسط لأولئك .

والمعنى الثالث ، يقبض ويبسط في الأنوار والظلال ، قال تعالى فيما يتحدث عن الليل والنهار :

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٦] .

أين النهار إذا جاء الليل ، وأين الإشراق والوضوح ؟ وأين الليل

إذا جاء النهار ؟ تكون في وحشة وفي خوف وفي قلق ، فتشرق الشمس فتحس بالراحة ، وبالأُنس والطمأنينة ، إذاً يقبض ويبسط ، يقبض النور ويبسطه .

والمعنى الرابع : أن الله عز وجل يقبض الأرواح ، فإذا قبض روح العبد أماته ، وإذا بسطها أحياه ، فالأرزاق والسحب والظلال والأنوار والأرواح يقبضها ويبسطها .

والمعنى الخامس يتعلق بالأرض أيضاً ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يقبضها ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] .

فبسط الأرض : أنه جعل الدنيا صالحة لحياتنا ، وقبضها : أي أنهى عملها ووظيفتها ، فهي مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين .

والمعنى السادس : أن الله سبحانه وتعالى يأخذ الصدقات أي يقبضها ؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَصَدَّقَ مِنْ طَيِّبٍ تَقَبَّلَهَا اللهُ مِنْهُ وَأَخَذَهَا بِيَمِينِهِ وَرَبَّاهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصِيلَهُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَصَدَّقُ بِاللُّقْمَةِ فَتَرْبُو فِي يَدِ اللهِ أَوْ قَالَ فِي كَفِّ اللهِ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ فَتَصَدَّقُوا » .

[مسند الإمام أحمد]

لكن الموضوع الحساس الذي نحتاجه جميعاً هو أن الله سبحانه وتعالى يقبض القلوب ويبسطها . . . والخوف والرجاء للمستقبل ، فأنت دائماً تخاف من الله عز وجل أو ترجوه ، والقبض والبسط للحاضر فأنت الآن في حالة قبض أم في حالة بسط ؟ . . فإذا قلت :

لا أعرف ، فمعنى ذلك أنت خارج المدرسة ، وخارج التعليم كله ، فاسأل طالباً : ما العلامة التي نلتها بالرياضيات ؟ وما العلامة التي نلتها باللغة العربية ؟ فإذا قال : لا أعرف فمعنى ذلك أنه خارج المدرسة كلياً ، فالمؤمن الصادق بين حالتي القبض والبسط .

والحقيقة إذا قبض الله عنك الأحوال الطيبة ، شعرت بالوحشة ، وبالضيق ، وبالحرمان ، وشعرت أنك مردود ، ثم شعرت أنك مرفوض ، ضن الله عليك بالتجلي ، فقد تلوت القرآن وما شعرت بتجلٍّ وقمت إلى الصلاة وما شعرت بخشوع ، ثم أردت أن تذكر الله عز وجل فما شعرت برغبةٍ ، فهذه الحالة ما اسمها ؟ إنها حالة قبض ، يعني أن تحس أن الله عظيم وأن الله جلَّ جلاله كبير ومتعال ، ومن أنت حتى يتجلّى الله عليك ، فالله عز وجل مربٍّ ، فإذا بسط الله للإنسان الأحوال والسرور والانشراح والأنس واستمر هذا الحال الطيب تراه بعد حين يقصر في عباداته ويتهاون في صلواته ، ويتكاسل في أعماله الصالحة ، أما حينما ينتابه القبض ، فيكون مع القبض الضجر والضيق عندئذٍ يفزع إلى الله سبحانه ليعود إلى حالة الانشراح ، إذاً مع القبض الخوف ثم القلق ، ويعقب ذلك إنابة إلى الله يمازجها الرجاء والأمل .

إذاً فربنا عز وجل يعالج المؤمن ، ولكن هذا الكلام أقوله للمستقيم ، أما غير المستقيم فتعروه حالة انقباض لا معالجة لها ، بل هي نتيجة طبيعية لمعاصيه ، وكل معصية معها انقباض ، حتى إن علماء النفس الأجانب قالوا : إن المنحرفين يشعرون بكآبة .

والآن يسمي علماء النفس الأمراض الشائعة الوبائية في الشباب

أمراض الكآبة ، وأسبابها الانحراف عن الفطرة العالية التي فطروا عليها ، وكل إنسان مفطور فطرة عالية فإذا انحرف عنها وأساء وتعدى وبنى متعهُ الرخيصة على حقوق الآخرين شعر بالانقباض والكآبة ، وهذه خارج درسنا فأنا أتحدث عن المؤمنين المستقيمين الورعين ، إذ أحياناً تصيبهم حالة الانقباض ، وهذه حالة نسميها علاجاً من الله عز وجل ، فالله عز وجل يقلب المؤمن بين القبض والبسط ، فتراه أحياناً متفائلاً ، طليق اللسان ، واضح السرائر ، بشوش الوجه ، وتشعر أنه مبسوط الأسارير والصدر والنفس ، وأنه سعيد ، يمشي واثقاً من مشيته ، ويتحدث واثقاً من حديثه ، وهذه الحالة اسمها حالة البسط ، فالله عز وجل تجلى على قلبه باسم الجميل ، إذ جمَّله فأحس بالجمال ، والسعادة .

ولكن هناك منزلق ، فعندما يشعر المؤمن أنه قريب من الله ومتفوق وفالح وناجح وفائز ، والناس مساكين ضعيفون ، ضعيفو الهمة والعزيمة ، ومقصّرون ، وغارقون في المعاصي ، وبعيدون منقطعون ومطرودون ملعونون ، وهو وحده في سعادة ، وهذا الشعور بالانبساط يصاحبه أحياناً انزلاق ، وعُجب ، أو كِبْر أو تعالٍ أو استطالة على الآخرين ، فالعلاج حالة أخرى مضادة وهي القبض ، فتراه بعد أيام مستكيناً فتقول له : خير! ماذا بك ؟ فيقول : الحمد لله ، لقد كان يمشي قفزاً على الطريق ، ويقول : الحمد لله ، وهو الآن متضايق ولا يعرف السبب إذ لا معصية ندّت منه ولا ذنباً اقترف .

والكلام مُوجَّه للمؤمنين ، فإذا كان الكلام لغير المؤمنين فنقول له : لمَّا عصيت الله عز وجل أشعرك بالضيق ، وخالفت فطرتك فشعرت بالكآبة وهذا مرض ، وليس من إنسان مؤمن يرتكب إثماً أو

معصيةً إلا ويشعر أن الأرض لا تسعه على اتساعها ، قال الله تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] .

فهؤلاء الذين أمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه ألا يكلموهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، فحالة القبض للعاصي والمنحرف والمقصر .

ولو افترضنا أن الوالدة الجليلة طلبت منك حاجةً في منتصف الليل « دواء » مثلاً ، فقلت لها : لا أستطيع فإنني أشعر بحاجة إلى النوم ، أو ليس هناك صيدلية تفتح أبوابها في هذا الوقت المتأخر ، فهذا السلوك يبعث على الشعور بالذنب ويورث صاحبه كآبة ، وهذا موضوع آخر ، فإذا قصّر الإنسان في أداء واجباته ، أو ارتكب معصية أو إثماً أو خرج عن خط الاستقامة أو اغتاب ، أو أطلق لسانه في أعراض الآخرين ، أو أكل ما ليس له ، أو نظر إلى ما لا يحق له أن ينظر إليه ، فإذا وقع في معصية أو مخالفة شعر بالقبض ، وهذا القبض ليس موضوع بحثنا اليوم ، هذا قبض المعصية .

وأنا أقول : إن الإنسان إذا أطاع الله عز وجل وشعر بأنه تفوق وفاز ، وأن الله يحبه ، وأن الله يقربه ، وأن الله تجلى على قلبه ، فقد ينزلق مع هذا الحال الذي ألمّ به حال البسط ، فيستعلي على الناس ، فيعتز بنفسه ، ويعجب ، وعندئذ علاج هذا الانزلاق حالة مضادة هي القبض ، فتراه ساكتاً ، أو يتلعثم لسانه إذا تكلم ، فيشعر بضيق ، ويقوم ليصلي فلا يشعر بطمأنينة ، ويقرأ القرآن فما ترتاح نفسه ، فهذه

الحالة علاج رباني لمن أعجب بنفسه ، وتاه على عباد الله ، واستطال باستقامته ، هذه حالة القبض .

أما البسط ، فحينا يتألم ويتضايق ، ويشعر بالوحشة ، ويتصحر قلبه ، فقد ينزلق مع القبض إلى حالة مرضية وهي اليأس ، فإذا شارف اليأس جاءت حالة مضادة وهي البسط ، فاعلم أيها القارىء الكريم أنك بين حالتين ؛ القبض والبسط ، لأن الله هو القابض وهو الباسط ، فإذا كان القبض يناسبك قبضك ، قبض الأحوال عنك ، وضيَّق عليك الدنيا وأشعرك بالسأم والضجر ، وبالوحشة والبعد إذ أبى أن يتجلى على قلبك ، وإذا اقتربت مع القبض إلى اليأس تجلى على قلبك فأشعرك بالقرب والأنس والسرور والانشراح ، فأنت أيها المؤمن بين حالتي القبض والبسط ، فما العلاج ؟ العلاج أنك إذا استحققت من الله حالة البسط ، فإياك أن تنزلق منها إلى الغرور أو إلى الاستعلاء أو الإعجاب أو أن تستطيل على عباد الله .

إذاً مع البسط هناك منزلق وهو الإعجاب « **لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك** » ، فما الذي هو أكبر ؟ « **العُجْبَ العُجْبَ** » ، وإذا أصابتك حالة القبض ، فما ينبغي أن تنزلق منها إلى اليأس .

إذاً : رب العالمين هو رب النفوس إذ يربي الأجساد بإمدادها بالمواد ، ويربي النفوس بتقليبها من حال إلى حال ، قال الله تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء : ٢١٢ـ٢٢٠] .

فأنت أيها المؤمن تتقلب من حال إلى حال ، من حالة بسط إلى حالة قبض ، وإلى بسط وإلى قبض ، فأنت موضوع عناية الله عز وجل وتربيته ، فلذلك استسلم .

أما إذا جاءك القبض إثر معصية أو مخالفة أو عدوان أو انحراف ، فهذا قبض المعصية ، وهذا موضوع آخر أشرت إليه من قبل ، فأية معصية يعقبها إحساس بالكآبة ، وهذه هي الفطرة .

وربنا عز وجل لِمَ أودع فيك العقل ؟.. لتعرفه ! ولِمَ أودع فيك هذه الفطرة العالية ؟.. لتعرف خطأك .

فبالعقل تعرف ربك وبالفطرة تعرف خطأك ، إذ ينتابك الانقباض..

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقَالَ : « **الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ** » . [صحيح مسلم] .

واعلم أن معك ميزاناً ، إذا كذب الإنسان أو اعتدى أو خان أو نظر نظرة لا تحق له أو استطال بلسانه أو... إلخ ، فإنه يشعر بالانقباض ، وهذا ينتابه إذا كان فيه إحساس .

وأحياناً تنطمس الفطرة ، ويتعطل الميزان ، فهذا الإنسان لا يعي الخير : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ فَإِنْ زَادَ زَادَتْ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ الله فِي كِتَابِهِ ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** » . [سنن ابن ماجه] .

فالمعاصي تِلوَ المعاصي والمخالفات تلو المخالفات والانغماس في الدنيا والتطاول على خلق الله وترك العبادات وترك الذكر ، وهذا كله ينتهي إلى قلب مغلف :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] .

فإذا امتلأ القلب من حب الدنيا ، فليس هناك محل لشيء آخر فيه ، إذاً ختم القلب ختماً حُكمياً ، فالقبض والضيق والوحشة الناتجة عن المعاصي هذه علاجها الطاعات والتوبة ، أما القبض الذي ليس له سبب ظاهر لمن يمشي في طريق الإيمان فهو معالجة إلهية لطيفة له ، وقد قال العلماء : « **إنه على المؤمن أن يصبر حتى تنجلي هذه الحالة بتقدير الله عز وجل** » .

وهناك تعريف لطيف جداً للقابض ذكره القشيري ، يقول : « **القابض الذي ملك زمام كل شيء** » ، ومن معاني القابض القدير ، فأحياناً أنت لا تستطيع أن تدس الحزن في قلب إنسان إذا كان سعيداً ، ولو كلمته لا يبالي بكلامك ، لكن ربنا عز وجل قدير ، ومعنى قدير أنه ملك زمام كل شيء ، يقبض ويبسط كيف يشاء ، يقبض العقل ، فلا يفهم المقبوض شيئاً ، ويقول لك : ما فهمت .

دخل طالب مغرور الامتحان ، فجاء سؤال حول مؤتمر برلين في التاريخ ، قال : بقيت ساعة وأنا أفكر أين عقد هذا المؤتمر ؟ وهو اسمه مؤتمر برلين ، وعقد في برلين . . ! أحياناً يرى الشيء على خلاف ما هو عليه في مواقف الامتحان ، فالإنسان إذا اعتزَّ بعقله وتاه

بذكائه يرتكب حماقات يترفع عنها الحمقى ، ليُرِيَهُ الله عز وجل أنه هو القابض ، يقبض عنك الفهم ، ويقبض العقل فلا يفهم ويقبض القلب فلا يغنم ، تراه يقول : « ضاق قلبي » ، هذه المشاعر ليس لها سبب واضح ، فالبيت واسع ، والزوجة ممتازة ، والأولاد أصحاء ، والدخل يسير فلا مشكلة ، ويقول : « ما أكثر ما يضيق قلبي ، وأكاد أموت ضيقاً » فتقول له : قلبك بيده ، القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، هو الذي يسعدك وهو الذي يقبض عنك كل سعادة . وقد ملك زمام كل شيء ، إذْ يقبض العقل فلا يفهم ، يقبض القلب فلا يغنم .

وهناك قلب كبير ، مفعم بالسعادة والرضا وبالإشراق الرباني وقلب متصحر ، كالصخر لا يرحم ولا يلين ولا يتأثر ولا يبكي ، وإن يقبض الله القلب فلا يغم وإن يقبض الصدر فلا يفرح ، وإن يقبض الرزق فلا يمنح ، « فيقول : أَرْمِي بالطلب يميناً فيرتد شمالاً » ، وهذا أحد الشعراء ترك لبنان إلى أمريكا ، فقال :

أغرب خلف الرزق وهو مشرق وأقسم لو شرقت راح يغرب

فإذا أراد الله عز وجل ألا يرزقك فلو ذهبت إلى أقصى الدنيا ، ولو ذهبت إلى بلاد الغنى فإنك تعيش فيها فقيراً ، وقد يرزقك في بلدك في أصعب الظروف ، لأنه هو الرزاق ، هذا هو الإيمان .

قالوا : ويقبض الروح فلا تفرح ، فيأتي « **التشاؤم والسوداوية** » ويقبض النفس فلا تمرح ، ولا يفرُّ من حكمه وقضائه خلق من خلقه ، حكيم في فعله وتقديره ، لذلك قال ربنا عزَّ وجل :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٣] .

كلمة (متين) هذه صفة الأجسام التي تتحمل قوى الشد ، وأما القساوة فصفة الأجسام التي تتحمل قوى الضغط ، فالماس قاسٍ ، أما الفولاذ المضفور فمتين ، ولذلك فبعض الحبال العظيمة تحمل الجسور الكبيرة « التلفريك » مثلاً على أي شيء يُحمل ؟ على حبال من الفولاذ المضفور ، فالفولاذ المضفور من أمتن المعادن والماس من أقساها ، وربنا ـ عزّ وجل ـ وصفَ كيدَهُ بأنه متين ، وكأن الله ـ عز وجل ـ شبه كيده بحبل متين لا يمكن أن يُقطع والكافر مربوط به ، ولكن هذا الحبل مرخى فالكافر يتوهم أنه طليق ، فهو يتحرك ويؤذي ويتكلم ويتبجّح ويتفلسف ويتحدى ويتطاول ، ويوقع الأذى بزيد وعُبيد وهو يظن أنه يفعل ما يشاء . ويظن أنه على كل شيء قدير ، وفي لحظة واحدة يشد الله الحبل المتين فإذا هو في قبضته ، ومعنى القابض أنه قول الله عز وجل : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ .

ومعنى القابض يمكن أن يغلق عليك عقلك ، وأن يجعل قلبك متصحراً ، وأن يصيِّر نفسك سوداوية المزاج متشائمة ، وهناك حالات كآبة تدفع أصحابها إلى الانتحار ، لكن المؤمن بالله عز وجل في منجىً من ذلك .

وهذا رأي آخر للقشيري ، قال : « **القبض والبسط حالان يهذب الله بهما الذاكرين** » ، ألم يروَ عن النبي الكريم ﷺ « **أدبني ربي فأحسن تأديبي** »[1] .

فأحد إخواننا الكرام عنده معمل متواضع ، وأخ آخر علم أن هذا

---

(١) المعنى صحيح ، لكن لا يعرف له إسناد ثابت . قال الحوت في أسنى المطالب : سنده ضعيف ومعناه صحيح .

المعمل لفلان ، في اليوم التالي ذهب إليه ، وهو معمل يصنع ألبسة ، يبيع بالجملة من خمسمئة إلى ألف اثني عشرية ، وهذا الأخ دخل إلى المعمل وطلب ست قطع ، فكأن هذا الطلب أهان صاحب المعمل ، فقال : أنا لا أبيع مفرقاً ، فودعه شاكراً ، وانصرف خجلاً ، فيقول صاحب المعمل : لقد مرَّ علينا ثلاثة وعشرون يوماً وما دخل معملي إنسان ليشتري ! أما الآن فأبيع ولو قطعة واحدة ، وهذا تأديب الله عز وجل ! تتكلم كلمة في غير موضعها فيحجبك عنه أسبوعاً فيتفجر صدرك ضجراً ، فإذا كان هناك تقصير أو تجاوز ، فيأتي القبض ، وما القبض إلا دليل على أن الله رفضك ، أي : رفض عملك ، ورفض التصرف الذي بدر منك ، فما أقبل على قلبك بعد ذلك ، وما تجلّى عليك ، وهذا لمن عنده حساسية بالغة .

وهناك ميزان توزن به السيارات ، تصعد فوقه فيسجل عشرين طناً ، وهذا الميزان لا يزن أوقية بن ، ولا خمسة غرامات ذهب ولا ماسة ثلاثين قيراطاً ، وإذا وضعت عليه كيساً وزنه مئة كيلو فلا يتحرك ، وهناك أشخاص عندهم ميزان غير حساس ، وهو لا يفكر بربه أبداً ، وهذا الإنسان وأمثاله ليس موضوع بحثنا الآني .

أما المؤمن فبعد اللطف التام والوجهة إلى الله عز وجل يملك حساسية مفرطة ، فإذا شعر أن قلبه في الصلاة منقبض غير خاشع أدرك أن في تصرفاته شائبة ، فلعله فاه بكلمة جارحة ، أو خطر في باله خاطر سوءٍ ، أو أساء الظن بالله عز وجل ، أو لعلّهُ جرّح كرامة شخص ، أو كسر قلباً بريئاً ، أو أومأ لإيماءة مشبوهة .

ولذلك أقسم ربنا عز وجل في القرآن الكريم بالنفس اللوامة ،

فهناك نفس مطمئنة ، هي نفس الأتقياء الصديقين ، أهل الإحسان ، وهناك نفس أمارة بالسوء : هي نفس العصاة ، أما نفس المؤمن فلوامة ، وهي دائماً في حساب مع ذاتها عسير ، تقرّعه ، تعنفه ، لعلي تكلمت كلمة لاذعة ، أو منعت عطاءً أو أسأت أدباً وتصرفاً ، فهو دائماً في معاتبة مع ذاته ومحاسبة مع نفسه ، وهذا معنى النفس اللوامة .

قال العلماء : القبض والبسط حالان يهذب بهما عباده الذاكرين ، ويفتح بهما عليهم أبواب العلم والحكمة ، فإذا هجم القبض على أحدهم فإنه يهجم على صدره من أبواب الجلال وحكمة الكبير المتعال ، وتكثر الخواطر فيشتد الخوف ، ويتذوق العبد جلال الله عزّ وجل ، فتمنع الذات الإلهية عن العبد ويشعرها بالجلال ، وإذا اشتد عليه هذا الحال أي لطف الله به ، فعند ذلك المقدار الذي يطيقه ينفرج صدره بالبسط ، وإذا هجم عليه حال القبض وشعر بالخوف فالله عز وجل حكيم لا يسحقه ، بل يعطيه قدراً من القبض يطيقه ، وعندئذ يغشاه حال البسط ، وهذا كلام يتوجه إلى أناس لهم خبراتهم مع الله ، ولهم صفاؤهم ولطفهم ، ولهم صدقهم وحرصهم على طاعة الله ، بل لهم ورعهم ، وعندئذ يصبح قلبهم ميزاناً دقيقاً وحساساً ، ونرجو من الله عز وجل أن نملك هذا الإحساس .

أما قلنا : هناك ميزان لا يتأثر ولا يتحرك ولا بمئة كيلو ، هذا معد ليزن حجماً كبيراً ووازناً ، كسيارة شاحنة ، لكن هناك ميزان ، تراه عند الصائغ فيوقف المروحة أثناء وزن الذهب ؛ لأن الهواء الصادر عنها يغير كفة الميزان وهناك موازين تزن بها ورقة مثلاً فينحرك مؤشره ، فوزنه دقيق ، ولو كتب على الورقة كلمة واحدة لرجحت

الكفة بوزن المداد الذي على الورقة ، فكلما ارتقى المؤمن دقَّ ميزانه ، فقل لي : ما مستوى ميزانك أقل لك من أنت ، وما مستوى إيمانك ؟

الميزان الدقيق دائماً له حساسية : زائد ناقص درجة ، ولو افترضنا أن عندنا ميزان حرارة غالياً جداً ، وقسنا عليه ميزان حرارة رخيص فإنه يتغير درجة ، نقول : حس هذا الميزان زائد ناقص درجة ، وحس هذا الميزان زائد ناقص غراماً ، فكلما اشتد الحس قلَّ الخطأ ، والمؤمن كلما ارتقى أصبح عنده ميزان دقيق جداً في محاسبته نفسه .

قال الحسن البصري رحمه الله : « أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله عز وجل في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الدين لله هموا بالله وإن كان عليهم أمسكوا وإنما يثقل الحساب على الذين أهملوا الأمور فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر فقالوا : ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ » .

وعن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إن المؤمن قوام على نفسه لله عز وجل وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا . . وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إني لأشتهيك! وإنك لمن حاجتي! ولكن والله ما من صلة إليك هيهات هيهات حيل بيني وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا مالي ولهذا ؟ والله! لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه .

وعن موضوع القابض الباسط ، فأصحاب النبي عليهم رضوان الله قالوا : يا رسول الله قد غلا السعر فسعِّر لنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **إن الله هو المسعِّر القابض الباسط الرازق ، إني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحد يطلبني بمظلمة في دم ولا مال** » [رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه واللفظ له بسند صحيح من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ] .

والذين ضمنوا المشمش في الغوطة في أحد الأعوام قدروه بسعر عشرين ، واشتروه بهذا السعر ، وباعوه بخمسٍ ، والإنتاج كان غزيراً جداً ، والكمية الكبيرة خفضت الأسعار ، فإذا قال النبي ﷺ : الله هو المسعِّر ، فالكميات بيد الله . ومرةً في محافظة الجزيرة أنتج الكيس ثمانين كيس قمحٍ ، والعادة أن ينتج عشرة ، أو خمسة عشر ، وكل سنة ينفرد موسم ما بكميات عجيبة ، مرةً موسم الزيتون ومرة موسم البطاطا ومرة موسم البصل وترى الأسعار تنخفض إلى أرقام خيالية ، فالله هو المسعر ، والله القابض يقبض فتكون الكميات قليلة ، فالأسعار عالية ، فيبسط ، فتكون كميات كثيرة ، فالأسعار منخفضة ، وإن الله تعالى هو الخالق القابض الباسط المسعر .

وقال بعضهم : أنت بين أن يقيك وبين أن يبقيك ، وهو القابض الباسط ، والقابض الذي يقبض الصدقات من أربابها فيربيها والباسط الذي يبسط النعمة وينميها ويهنيها ، إذ يقبض الصدقات ويبسط النعم.

والقابض هو الذي يخوفك من فراقه ، والباسط الذي يؤمنك بعفوه وإطلاقه ، والإمام الغزالي يقول : « **القابض الباسط من العباد من ألهم بدائع الحكم وأوتي جوامع الكلم** » ، فمثلاً ، أنت داعية فإذا حدثت الناس عن رحمة الله وكرمه وعطائه وعفوه ، وقلت : لا تخافوا يا إخواني! فالقضية سهلة والله غفور رحيم ، ولا يسعنا إلا عفوه وكرمه ، ومن نحن أمام عفو الله ، فإذا جعل كل دعوته الجانبَ المُشْرِقَ ، أيكون حكيماً! ؟

قيل إن الإمام الغزالي كان يكتب كتاباً فوقفت دويدبة فانتظرها حتى شربت من مداد القلم ، فلما مات رآه أحد تلاميذه وقال : ياسيدي ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني الله بهذه الدويدبة التي انتظرتها حتى شربت!! وهل كل عمله ليس له قيمة ؟ فمثل هذا الكلام ليس فيه حكمة .

تحدثنا عن الله عز وجل كيف يقبض الأرواح ويبسط الحياة ، ويقبض الأرزاق ويوسعها ، ويقبض القلوب أو يفيض عليها من جلاله وجماله .

والسؤال الملح بعد كل هذا ؛ أنت مؤمن فما علاقتك بهذا الاسم ؟ أي إذا دعوت إلى الله عز وجل يجب أن تجري موازنة دقيقة بين أن تطمع الناس برحمة الله وبين أن تيئسهم من جنته ، فاليأس مرض والطمع مرض ، فإذا ذكرت الجانب الرحماني فقط وعفوه وكرمه وتجاوزه وحلمه ، ولم تذكر عذابه وعقابه وإيلامه وما عنده من عذاب مقيم فلست محسناً ، ولست حكيماً في ذلك ، إذاً اجمع بين القبض والبسط حتى في دعوتك إلى الله عز وجل ، لأن الإنسان

بحسب ما تُلقِّنه ، وبحسب ما تغذيه يعوجّ أو يستقيم ، وماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ فَقَالَ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ لا أَنْتِ أَطْعَمْتِيهَا وَلا سَقَيْتِيهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِيهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ** » . [صحيح البخاري] .

ويفهم من ذلك أن النبي ﷺ قد خوفنا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلاتِهَا ، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ وَلا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ » . [مسند الإمام أحمد] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي ؟ قَالَ : « فَلا تُعْطِهِ مَالَكَ » قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي ؟ قَالَ : « قَاتِلْهُ » قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : « فَأَنْتَ شَهِيدٌ » قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ ؟ قَالَ : « هُوَ فِي النَّارِ » . [صحيح مسلم] .

فأنت تقرأ أحاديث النبي ﷺ فتعجب ، فأحياناً تخاف خوفاً شديداً ، وأحياناً تسمع النبي عليه الصلاة والسلام يطمئنك ويبشرك ويلقي عليك من رحمة الله عز وجل الشيء الكثير ؛ ليجعلك بين الخوف والرجاء ، وهذا أسلوب الحكيم .

فأنت أيّها الداعية اقتد بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وهناك دعاة

كل حديثهم عن جهنم ودعاة كل حديثهم عن الجنة وعن الحور العين ، فهؤلاء بهذا الحديث ـ وحده ـ أخطؤوا ، وهؤلاء بهذا الحديث وحده أخطؤوا ، وكما أن الله قابض باسط فيجب أن تكون مرةً في دعوتك تخوف عباد الله من معصيته ومرةً تحببهم في طاعته .

ورد في بعض الآثار : « **قال داود فيما يخاطب ربه : يا رب! أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك ؟ قال : يا داود! أحبُّ عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يأتي إلى أحد سوءاً ولا يمشي بالنميمة ، تزول الجبال ولا يزول ، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى عبادي ، فقال : يا رب! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادي ؟ قال : ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي** » .

هنا الدِقة : « **ذكرهم بآلائي** » ، بهذه الآيات الدالة على عظمتي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني ، إذاً لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله من خلال الكون ، ومحبةٌ له من خلال النعم ، وخوفٌ منه من خلال النقم .

وأحياناً يريك ربنا إنساناً مصاباً بمرض خبيث ، أو توقف كليتين فحياته جحيم ففي كل أسبوع تُغسل فيه الكليتان مرتين فيشعر بانقباض شديد ، وهناك أمراض وأوبئة وأمراض عضالة ، وفقر شديد ، والله عز وجل قد يمنع عطاءه حتى يندفع الفقير إلى أن ينقب في القُمامة ، والله بعيني هذه رأيت أناساً كثيرين يبحثون في القمامة عن شيء يأكلونه ، ألم يُقلْ : « **إذا أعطى أدهش ، وإذا حاسب فتش** » ووَراء العطاء والمنع حكمة له قد ندركها وقد لا ندركها .

« **ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي** » ذكرهم بآلائي كي يعظموني ،

إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ، « وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني » .

وهناك حالات كثيرة ، يتجاوز فيها الإنسان حدّه ، فيؤذي مخلوقاً من مخلوقات الله عز وجل ، فربنا عز وجل يكلّفه الثمن باهظاً ، فمن حوله يرتدعون ، ويخافون ، فإذاً هذا البلاء بلاء ردعي ، وهذا الإكرام إكرام تشجيعي ، ولكنَّ العطاء الكامل يوم القيامة ، قال الله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

[آل عمران : ١٨٥] .

وبعد ، إن الله سبحانه إذا أكرم إنساناً في الدنيا فهذا إكرام تشجيعي له ولغيره ، وإذا عاقب إنساناً فهو عقاب ردعي له ولغيره ، فإذاً يجب أن يكون في القلب حب لله عز وجل وخوف منه وتعظيم له .

* * *